دفاعاً عن الذاتية المتمردة

الطاهر بنجلون

أن تكتب من أجل الشعب... هذا يعني أن تغتر وتنخدع. يعني بطريقة ما أن تتكلم نيابة عنه، ان تحرمه من حقه في الكلام. هذه حقيقة خطيرة، خاصة وأن الكتابة تنطلق عادة من شعور صادق ونية حسنة. والحال أن هذه الحقيقة تكشف عن تحول سحر الديماغوجية البارع إلى اغتصاب وتشويه واحتقار. ان الشعب، نظراً لهويته المعقدة وغير المتجانسة، ولتركيبه غير المحدد والمتناقض، ولبنيته المجردة الدقيقة، لا يمكنه منطقياً أن ينتدب شخصاً ليتكلم نيابة عنه. تجاوزاً، يمكن لجماعة معينة أن تفوض لشخص نقل كلام بصيغة الجمع أو معبر عنه بغموض. لكن، يستحيل على شعب بكامله أن يتعرف على ذاته في شخص واحد ويتوحد معه. ان العكس هو ما يحدث عادة. فقد يوحي رجل واحد بأن وراءه شعباً بكامله، بل ويبعث على الاعتقاد بأنه «تعبير أصيل» وخلاصة رائعة للايين الذوات المفردة، ومن ثم لعدد لا حصر له من المغايرات والتناقضات. هذه الظاهرة تسمى الديكتاتورية. فبالقوة غالباً- إذ لا سبيل إلى ذلك بدون قوة- ينصب فرد ما نفسه كشعب كامل. ان انكار تنوع الذاتيات، وردع غناها المتعدد والباهر، يعنيان ممارسة نوع من الديكتاتورية والارهابية المتنكرتين وراء خطابات وصور تستهدف دغدغة بعض الاحاسيس. ان بين مجال السلطة السياسية والعسكرية ومجال سلطة الكتابة نهراً صغيراً يمكن عبوره بدون مهارة في السباحة. تكون الكتابة- وهي تلاعب بالكلمات والصور- ذات سلطة كبيرة وخطيرة في آن واحد حين يستثمرها مثقفون أخفقوا في السياسة. وتتجلى الخطورة في احتقار الذاتية، أي امكانات الفرد الابداعية وحرية مخيلته. فالفرد يتقدم، أو يعتقد على الاقل أنه يمارس انتحاراً على أبعاد كيانه المبلبلة والمحيرة. انه يضع نفسه في خدمة كذا... يخضع لـ «الارادة الشعبية» ومن أجل ذلك، فهو يرضى بتضحيات هامة، أي أنه يكبت اندفاع عواطفه التي قد يعجز عن السيطرة عليها. والحق أن ما يحدث هو تحويل للذاتية، نظرا لاستحالة الافلات من الذات. ان الانصهار في الحشود يعتبر استجابة لضرورة ادنى وأسهل. هكذا تتم خدمة المصالح! ويختصر- H. Marcuse هذا المسعى بقوله: «ان ذاتيات الافراد، وكذا وعيهم ولاوعيهم الخصوصيين، ان كل هذا ينزع إلى الذوبان في الوعي الطبقي. فينتج عن ذلك ضياع شرط أولي وأساسي للثورة، وهو أن أي رغبة في التغيير الجذري لا بد وأن تتجذر في ذاتية الافراد أنفسهم، في عقولهم وانفعالاتهم ونزواتهم وطموحاتهم» («لوموند ديبلوماتيك»، مارس ١٩٧٩).

ففي حين نجد الدول المختلفة عموماً تواجه العالم المتقدم بلاعقلانيتها وانفعالاتها، نرى أن الذين يحاربون التخلف ينزعون إلى حرمان العالم الثالث من تنفسه العميق، أي من ذاتيته، وذلك لاقتناعهم بأن البعد الذاتي مفهوم «بورجوازي» يعرقل سيرورة النمو التي ترتبط بمبدأ الفعالية المشهور. ان الابداع الأدبي والفني يستخف بهذا المبدأ[٢]، لان قيمة الكائن الجوهرية لا يمكن تحديد كميتها أو ادماجها في عملية انتاجية ومردودية. فهذه القيمة الجوهرية هي ما يتيح للذاتية تحريرها. يمكن القول إنها «قوة انتاجية» تعادل العوامل الاقتصادية البديهية من حيث أهميتها ان الواقع الانساني بؤرة تنصهر فيها عدة عوامل مقومة اعتدنا من باب السهولة تصنيفها الى عينات. فالانفعال والعاطفة والحلم واليأس عناصر حاسمة وجوهرية تساهم كذلك في تشكيل الواقع مثلها تساهم في ذلك عوامل الانتاج المادية والموضوعية. ان الابداع الادبي لا يغفل تلاحم هذه العناصر جميعها: لكن، حين يقول حدوده وعجزه يرفضه رجل السياسة، أو بكلمة أفضح «المناضل». والحال أن البعد الاجتماعي للادب ينبغي تجاوزه إذا كنا نريد حقيقة قلب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية. يقول- Herbert Marcuse: ان الفن، بتجاوزه للواقع المباشر، يكسر موضوعية العلائق الاجتماعية القائمة، وهي موضوعية مشيأة، ويفتح ابعاداً جديدة للتجربة: انه استكشاف الذاتية المتمردة». فمن خلال هذه الذاتية- المفردة والاستثنائية- يقول الشاعر أو يحلم بحقائق لا يمكن التعبير عنها بأدوات أخرى. ان لغة الشاعر تتجاوز كل انواع الخطاب والتماثل، تناقض البديهي وتعكس المألوف. وهكذا، تنسحب القصيدة لسموها، من الواقع الملموس، وتكتسب، بفضل تعريتها للحقيقة والانفعال، قانونها الخاص وجوهرها الاساسي، أي كونها في صلب الواقع وفوق الاحتمالات.

تصبح القصيدة حينئذ ما يفلت من ديكتاتورية البديهي، أي من الواقع المقنع على سبيل الامن والاحتراس والتوفيق. تصبح القصيدة تكذيباً للواقع الظاهر. تتهم القناع وتمزقه. ان وظيفة كل ابداع حق تكمن في تجاوزه للواقع السائد الملموس، وهو شرط ضروري ليكون الانسان، كما يقول- Ernst Fischer، «كائناً متضاداً يقاوم الذوبان في المؤسسات القائمة والنظام السائد» (منقول عن- H. Marcuse). ان قلب العلائق الاجتماعية والاقتصادية مطلب ضروري وحقيقي لا يقبل الجدل، لانه أساس كل مسيرة ابداعية. لكن القصيدة أو اللوحة ليستا ثوريتين لمجرد استلهامها موضوع التغيير. فالثورة موضوع ممكن من بين عدة موضوعات لا يتجاوز حدوده.

ان المثقف في العالم الثالث لا يمكنه بخاصة أن يبيح لنفسه بعض القناعات، وبتعبير آخر بعض الانحرافات، لانه ملزم بتحمل امتيازه كمسؤولية. والحقيقة أن المشكل يبدأ من هذه الملاحظة المهمولة، وهي أن أكثر من ٨٠٪ من الشعب لا تعرف القراءة والكتابة. ان وضعية بئيسة مثل هذه لا يمكن أن تتغير بشكل سحري، بل لا بد من الوقت، وكذا من الرجال ذوي العزم الحقيقي على أحداث التغيير. ان الشاعر، سواء عاش وضعية البؤس هذه أو عاينها، معني بواقع الاهانة الذي يفرض على الآخرين. ومن ثم، فان الحرمان من حق القراءة والكتابة ربما يعتبر جرحاً أعمق من البؤس الاقتصادي والاستخفاف السياسي اللذين يمكن ممارستهما على جسد الانسان...

الكتابة ممارسة عاجلة:

أن تكتب في قارة آهلة بالاميين: أليس ذلك ذروة المفارقة؟ يجيب Carlos Fuentes: «لا. ليس في الامر مفارقة كما قد يبدو. ونعل الكاتب يعرف أنه يعمل من أجل صيانة وادامة العلاقة مع ذلك التراث الثقافي المعجز الذي نادراً ما يجد معادله السياسي».

لقد انطبع التصدع نفسه فوق أرض امريكا اللاتينية الساخنة والانسانية، وهو يعطينا اليوم أدباً تتعرف فيه على نفسها كثير من الشعوب المسحوقة الفقيرة: أن أطفال بوجوطا يعانون الجرح نفسه الذي يشم جسد عصافير القاهرة (هكذا يسمى أطفال مصر) أو شياطين الدار البيضاء. كما أن فلاحاً محروماً من أرضه يرنو الى الحلم نفسه، سواء كان من المغرب أم من الشمال الشرقي للبرازيل: انها الحياة نفسها المصعوقة بالظلم، المحرومة من التعبير، المحالة الى قدرها. ان الكاتب الذي يتناسل من هذا الواقع، والذي احبط محاولات الاغراء أو ضغوطاً أخرى، لا يمكنه أن يصمت ازاء احالة الانسان المحروم الى احد تلك الاقدار التي تنتصب على يد السلطة السياسية والعسكرية مصيراً أو عقلانية. فهو، أراد أم كره، سيظل في حياته وأحلامه وسهاداته وقلقه دوماً ملاحقاً من طرف تلك الحشود المجهولة الهائلة، حشود الاطفال الذين لم يعرفوا الطفولة ويحتقرون المراءاة، حشود الرجال والنساء الذين لا حق لهم في حياة كريمة وحرة. ان هذه الحشود صامتة أو مكمومة، تصرخ وتستنجد بالكاتب، لا لتتملقه، بل لتدعوه الى الانصات اليها، والا فمن سينقل هذا الصراخ المشحون بالعنف؟ ان ذلك بالنسبة للكاتب علة ضرورية وكافية ليكتب، حتى ولو كانت الحشود التي تنطق بلسانه لن تقرأ ما يكتبه. ان بامكان الكاتب أن لا يكتب، أن لا يستجيب لهذه الضرورة العاجلة، أن لا ينصت للصوت المقموع، أن يرتاد عوالم أخرى، أن يتفرغ لهمومه

ان قارة آهلة بالاميين «أحوج بالذات الى الكتاب من قارة متخمة بالمعرفة. أن تكتب لئلا تكرس الهزيمة. ان تكتب لتراهن على الحرية. ان تكتب، كما يقول- Carlos Fuentes «لتقتنع ضمن حميمية فعل الكتابة بالحاحية صيانة وادامة ثقافة الماضي التي بدونها لن يكون لنا حاضر حقيقي، ولا مستقبل واضح، مع الاقرار بأنك لن تحرز نتائج ملموسة، وبأنك لن تغير العالم لا بعشرة كتب ولا بألف كتاب، وبأنك لن تتلقى أية مكافأة».

أن تكتب: يعني اذن أن تراهن على الحرية وعلى المستقبل لان هذه القارة لن تظل دوماً موشومة بلعنة الامية. ومن ثم، يحق للاجيال الآتية، وربما لاطفال اليوم، أن يطالبوك بالحساب. حينئذ، سيكون عليك أن تقدم الكتاب أو الصمت.

أن تكتب: ليس ذلك ممارسة مريحة للغاية، فمجتمعاتنا تطفح باشكال النقص والعوز. لذلك، يضطر الكاتب الى مواجهة عدة مهام. فالواقع يستحثه لعدة نداءات دفعة واحدة. فهناك مجالات عديدة تطلبه بالحاح. انه ملزم بالابانة عن مهارته واناته، لانه ينتمي الى شعب لم يعد قادراً على تحمل اهانة حرمانه من حق الكلام، ملزم بالانصات والعمل، أي بخدمة الالحاحية الفورية. سيصبح الكاتب حينئذ، وبدون علم منه، بمثابة صحافي ومحام ورسول وناطق بلسان العمال ومدافع عن قضية وكاتب عمومي ونبي الازمنة العصيبة ورجل ملتزم بسائر النضالات الوطنية ورمز واسطورة ومساعف اجتماعي وكذا سفير لبلاده في سماء الادب... ان الوظيفة المتعددة لا حدود لها!

ان كل شيء جدير بالكتابة عنه في هذه البلدان التي يجلدها التاريخ، حيث تتعثر الايديولوجيات بواقع معقد، واقع اقوى وأكثر مفاجأة من الخيال، وتتفتت القوالب المستوردة أو تظل غير مستعملة وكاملة في تباهيها بالعالمية. ان الشعب ينتظر من الكاتب طموحاً جديراً بهذا الواقع المهتريء بالعجائبية، يطلب منه ان يكون ذلك الرجل الذي يضع نفسه دوماً رهن اشارته، وينصت الى كل ما يحرك ويزعزع هذه الارض الفقيرة لكن الحبلى بملايين الاحلام والحكايات والصور. وهكذا، ليس الكاتب فقط مطالباً بان يكون مناضلاً سياسياً، بل كذلك أن يكون مبدعاً وشاعراً منبثقاً من هذه الارض وهذا الشعب.

أن تكتب: أن تقدم حلولاً لمشاكل وطنك وعملاً فنياً في آن

واحد. فما يزال الالتزام يحظى بدلالته في البلدان التي تواجه مشاكل حيوية وليس موضات المثقفين- وفي هذا المعنى، يلاحظ الكاتب البيروفي Mario Vargas Alasa ظاهرة تنطبق على مجموع العالم الثالث، وليس على امريكا اللاتينية وحدها. يقول: «ان الكتابة في بعض الاقطار تعني اولاً تحمل مسؤولية فردية دون أي شيء آخر في الغالب، أي مسؤولية عمل يغني- حين يكون ذا مستوى فني جيد، الثقافة الوطنية. اما في البيرو وكذا اقطار أخرى في امريكا اللاتينية، فان الكتابة تعني أولاً تحمل مسؤولية اجتماعية دون أي شيء آخر في الغالب». فلا يجوز تقريباً لأي كاتب أن يفلت من هذه المسؤولية، لان تملصه منها وانعزاله واباءه الذوبان في حياة الشعب وتقوقعه في وحدة انانية- غالباً ما يؤول بالهروبية، ومن ثم يسوغ اتهامه بالتواطؤ مع سلطة القمع. ان صمت الكاتب وعدم فضحه للحيف موقفان ترفضهما قارة الاميين التي تنتظر منه ان يتكلم ويكتب عنها. فالادب مطالب بان يكون ذا جدوى وفعالية وتعددية في الوظائف والادوار والآثار. انه ينوب عن العلم مثلما يتجاوز الايديولوجية. انه ممارسة في خدمة الحقيقة.

واذا كان هذا التصور لممارسة الادبية يستهدف الواقع باعتباره الاديب موثقاً مرتبطاً بالمجتمع، فانه يقود في الحقيقة الى سوء فهم كبير ما دام يغفل الاهم في كل ذلك، الا وهو: كيف نكتب؟ كيف نبدع؟ يجيب Mario Vargas Alasa «ان الالتزام باعتباره مسؤولية تلزم الكاتب بفضح اشكال التعسف والظلم في مجتمعه وباقتراح الحلول؛ لا يضمن للعمل الادبي توفره على قيمة فنية ما. كما أن الرغبة في تعرية المشاكل الاجتماعية وفي المطالبة بحلها لا تعني أن النصوص المكتوبة بهذا الوازع ستكون ذات ابداع وأصالة». هل يجب اذن تبني ذلك الموقف المتطرف الذي يعتبره الادب ممارسة اسلوبية او تمريناً جافاً بارداً؟ ان موجة الرواية الجديدة، اذا كانت قد اتاحت بعض الامكانيات من اجل تجديد الكتابة الاكاديمية، فقد كان من آثارها كذلك أن جردت الادب من نسغه ورونقه. أحب، حين أقرأ نصاً، أن أحس أرضاً تنبض وراء الكلمات، وجسداً يتنفس، وحياة تخفق في مكان ما من الارض. والحال أن عقم بعض الروايات، باعتبارها انتاجات متأخرة بالنسبة لموجة الرواية الجديدة، يطابق وضعاً اجتماعياً لعله يتسم بتوقف الارض والجسد عن التنفس.

ان التزام الكاتب لا يتموضع ضمن المفهوم الشائع للكلمة: فالنضال داخل حزب أو منظمة سياسية شيء، والكتابة مع الممارسة السياسية شيء آخر؛ الا أن الاول لا ينفي الثانية. لكن نادراً ما تلتحم المسؤوليتان دون أن تسيء احداهما الى الاخرى، أو دون ان ينتج عن ذلك التباس وسوء فهم. ليس ضرورياً أن يكون الانسان كاتباً أو فناناً ليحس أنه معني بما يقمع ويخنق صوت الشعب فذلك احساس كل مواطن يأبى لنفسه الخضوع والاستقالة. واذا كان هذا المواطن، فضلاً عن ذلك، كاتباً، فنعم الامتياز، لانه يتوفر مبدئياً على امكانيات- محدودة لا شك- تسمح له بمقاومة الهمجية بشكل أكثر فعالية، كما تسمح له، بما ينتجه من أدب، بترسيخ ثقافة شعبه، التي تتهددها نفسها أخطار الخنق والتحريق والابادة، ان على المدى البعيد أو القريب

الطاهر بنجلون
ترجمة رشيد بنحدو

دار الآداب

تقدم

الطبعة الجديدة من مؤلفات

روجيه غارودي

- **ماركسية القرن العشرين** — **ترجمة نزيه الحكيم**
- **منعطف الاشتراكية الكبير** — **ترجمة ذوقان قرقوط**
- **البديل** — **ترجمة جورج طرابيشي**
- **مشروع الامل**